# كيف حال الإسلام والمسلمين فى الصين ؟

قصة الإسلام والمسلمين فى الصين قصة مثيرة، وأكثر فصولها مازال غامضا، فضلا عن أن القصة كلها تكاد تكون مجهولة لعموم المسلمين وبخاصة فى الدول العربية.

والمسلمون فى الصين يحتاجون إلى أن يمد لهم إخوانهم «على الجانب الآخر» أيديهم ويساعدونهم فى تعليم أبنائهم أركان الإسلام، وأحكام الفقه، وتفسير القرآن، واللغة العربية.. وإن كانت هناك بعض الجهود من دول عربية لكنها لا تزيد على أن تكون قطرة فى المحيط.

وفى طريقى لزيارة المركز الإسلامى فى بكين قال لى مرافقى، محمود نجم الدين (وهذا هو الاسم العربى واسمه الصينى يو زنج شانج) وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح:

من المفيد أن تعرف شيئاً عن الأقليات القومية فى الصين.. نحن عندنا ٥٥ قومية، والأغلبية العظمى من الشعب الصينى من قومية «الهان» وتمثل ٩٢٪ من السكان، و ٥٤ قومية من الأقليات من بينهم المسلمون وقوميات أخرى مثل قومية خوينج، وقومية الاوزبك، والطاجيك، ومنغوليا، والتبت.. الخ.. والقوانين تنص على إعطاء الحرية للقوميات فى استخدام لغاتها المنطوقة والمكتوبة، وتستخدم الأجهزة الرسمية للحكم الذاتى فى المناطق القومية لغة مكتوبة واحدة، أو عدة لغات مكتوبة منتشرة محلياً، وعندما تُستخدم عدة لغات فى وقت واحد تُعتبر «لغة القومية الأكثر عددا» هى

اللغة الرئيسية، وابتداء من خمسينات القرن العشرين ساعدت الحكومة المركزية أكثر من ١٠ أقليات قومية على وضع قواعد ١٣ لغة من اللغات القومية المكتوبة وشكلت هيئات خاصة لإعداد الكتب للأقليات، وقد جمعت الدولة حتى الآن حوالى ١٢٠ ألف كتاب من الكتب القديمة للأقليات وطبعت ونشرت أكثر من ٥ آلاف كتاب منها، وخصصت الدولة خبراء لكتابة تاريخ الأقليات القومية وأحوال المناطق التى تطبق فيها نظام الحكم الذاتى.

وقال لى أيضاً:

سوف تلاحظ أن فى الصين اهتماما ملحوظاً باللغة العربية، وعندنا أقسام عديدة فى الكليات الجامعية تدرس اللغة العربية، وحركة الترجمة من العربية إلى الصينية نشيطة بشكل ملحوظ الآن.

ثم قال:

إن الدولة تحترم عادات وتقاليد الأقليات القومية من حيث الأكل، والشرب، وتشييع الجنازات، والأعياد، والزواج، كما تحترم حرية المعتقدات الدينية للأقليات.. وحاليا فى الصين حوالى ٢٠ مليونا يؤمنون بالإسلام، وحوالى ٣٠ الف مسجد و ٤٠ ألف إمام وخطيب، وفى منطقة سينكيانج ٢٠ ألف مسجد، و ٢٩ الف إمام وخطيب، و ٨٠ جمعية دينية إسلامية.

ثم قال ونحن نكاد نقترب من مقر الجمعية الإسلامية:

مناطق الأقليات عموما كانت فى منتهى التخلف اقتصاديا وصحيا فى الصين القديمة، وانتشرت فيها الأمراض والأوبئة، وانخفض عدد السكان، وبعد تأسيس الصين الجديدة تحسنت الظروف الطبية والصحية وزاد عدد السكان زيادة ملحوظة.. مع ملاحظة أن ٥٠ سنة ليست زمنا طويلا فى تاريخ الدول، وفى هذه الفترة تطورت الصين القديمة من دولة ضعيفة وفقيرة وذليلة إلى صين تتمسك بالاستقلال وتتمتع برخاء ملحوظ.

ولا تنس أن شعب الصين حوالى ١٢٠٠ مليون نسمة كان معظمهم يعانى من الجوع والجهل والبرد، وقد ودع الجميع حياة البرد والجهل والجوع منذ سنوات.

ولم تعد الصين كما كانت «رجل شرق آسيا المريض».. وإن كنا نعترف بأن الصين مازالت دولة نامية تحتاج إلى زيادة تحسين مستوى معيشة الشعب، ورفع المستوى الحضارى والاجتماعى، وتعزيز الديمقراطية والاشتراكية.

ومرافقى محمود تاج الدين، وزميله «رشدى» يجيدان اللغة العربية قراءة وكتابة، محمود درس فى كلية الآداب بجامعة القاهرة وعاش فى القاهرة عامين كاملين ومازال يحمل ذكريات عن حى الحسين، والأزهر، والنيل، ويتحدث بشغف عن جمال الإسكندرية وآثار الأقصر.. ورشدى درس فى دمشق ولذلك تغلب عليه لهجة أبناء الشام ويتمنى أن يجد فرصة لاستكمال دراسته للغة العربية فى القاهرة .

وفى الصين نظام فريد يتفق مع الاتجاه إلى التوسع فى التعامل مع كل شعوب العالم، فهناك آلاف ممن يجيدون كل اللغات، وسافروا إلى البلاد الناطقة بهذه اللغات وعرفوا لهجاتها وعاداتها وثقافتها، وعاد كل منهم ليحمل اسما من الأسماء الخاصة بهذه البلاد.. فتجد من يتعامل مع العرب اسمه محمود أو رشدى أو شاكر أو عبد الجبار وهكذا، ومن يتعامل مع البريطانيين والأمريكيين اسمه جون أوالبرت أو ميشيل، ومن يتعامل مع الفرنسيين اسمه فرنسوا أو جاك، مع احتفاظهم طبعا بالأسماء الصينية فى معاملاتهم الرسمية، وهذا أسلوب تنفرد به الصين يجعل الزائر لا يشعر بالغربة لأنه يجد دائما من يتحدث بلغته ، ويحمل اسماً من الأسماء المألوفة له، وبذلك يتقرب منه، ويصبح صديقه.

□□□

فى «المركز الإسلامى» التقيت بعدد من المسئولين عنه، من بينهم محمد سعيد (مايون فو) نائب رئيس الجمعية الإسلامية الصينية، ومصطفى (يانج تشى بوه) مدير مكتب العلاقات الخارجية للجمعية وعضو المنظمة الصينية للصداقة والعلاقات الدولية.. الملامح العربية واضحة فى الوجوه.. والابتسامة.. وطريقة الكلام.. واللقاء بتحية «السلام عليكم» والحديث يبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم، وبعد كلمات التحية لم يكن هناك بد من الاستعانة بالمترجم، لأنه كان صعبا أن يتحدثوا، أو أن يتابعوا حديثى باللغة العربية.

والمركز الإسلامى فيه مسجد كبير، ومكتبة إسلامية متواضعة باللغتين الصينية والعربية، وفيه معهد للعلوم الإسلامية يدرس تعاليم الإسلام باللغة الصينية، لإعداد الأئمة بالإضافة إلى ١٠ معاهد أخرى لإعداد الأئمة منتشرة فى الساجد بالأقاليم، وهذا المعهد تابع للدولة، وبعض المعاهد الأخرى تتبع جمعيات أهلية.

و«الجمعية الإسلامية»- كما قالوا- أنشئت سنة ١٩٥٣ هى جمعية مستقلة وليست حكومية، ومصادر تمويلها من ثلاثة مصادر الأول: إيرادات الأوقاف الإسلامية التى أوقفها أصحابها للإنفاق على الدعوة الإسلامية ورعاية الساجد ، والمصدر الثانى للتمويل هو التبرعات من المسلمين من الصينيين والأجانب وتتلقى الجمعية تبرعات لتيسير الحج أو مساعدة فقراء المسلمين فى الصين، والمصدر الثالث هو معونة من الدولة حيث لا تكفى إيرادات الأوقاف والتبرعات لتغطية نفقات الخدمات والأنشطة التى تقوم بها الجمعية.. أما فى المقاطعات التى فيها معاهد إسلامية فإنها تتلقى الدعم المالى من المحليات، وكل المعاهد الإسلامية فى الصين تعمل تحت إشراف «الجمعية الإسلامية».. فى عموم الصين توجد ٤٣٠ جمعية إسلامية محلية تحت إشراف الجمعية الأم.

وتشرف على الجمعية الإسلامية هيئة لشئون الأديان تابعة لمجلس الدولة (مجلس الوزراء) والعاملون فى الجمعية الإسلامية المركزية والجمعيات المحلية يتقاضون رواتبهم من «الجمعية الإسلامية» وليسوا موظفين فى الحكومة..

قال لى الحاج محمد سعيد «مايون فو»:

المسلمون الصينيون يعيشون حاليا فى ظروف أحسن مما كانت فى الماضى.. المساجد يمكنها إعداد أئمة بالإضافة إلى المعاهد الإسلامية.. وهناك أعداد من المسلمين الصينيين يخرجون لأداء فريضة الحج.. قبل سياسة الانفتاح كان عدد الحجاج سنوياً يتراوح بين ١٠ و ٢٠ فرداً، بعد الإصلاح والانفتاح اصبح العدد بالآلاف.

نشاط الجمعية يشمل الإشراف على الجمعيات والمعاهد الإسلامية فى المحليات، وتنظيم أنشطة ثقافية لزيادة الوعى الإسلامى ونشر الثقافة الإسلامية والاحتفال بالمناسبات الدينية الإسلامية وبخاصة إحياء ليالى رمضان بالقرآن والذكر.

وفى الجمعية إدارة للاتصالات الخارجية ولها علاقات مع جمعيات ومؤسسات فى الدول الإسلامية، وتتلقى الجمعية كل سنة دعوة من «المجلس الأعلى للشئون الإسلامية» فى مصر لحضور المؤتمر السنوى لعلماء المسلمين الذى ينظمه المجلس، كما تتلقى من الأزهر منحاً للطلبة الصينيين المسلمين للدراسة فى جامعة الأزهر، والآن يوجد أكثر من ٢٠٠ طالب يدرسون العلوم الإسلامية فى الأزهر وفى باكستان أيضاً، وهذه الإدارة تشرف على شئون الحج، وتستأجر ٩٨ طائرة خاصة لسفر حجاج الصين، وتنظم أيضاً اشتراك الشباب الصينى فى مسابقات القرآن الكريم التى تنظمها وزارة الأوقاف فى مصر وقد فاز فيها شاب صينى بالمركز الأول، كما يشترك المسلمون الصينيون فى الأنشطة التى تنظمها السعودية

والإمارات وماليزيا وإيران، وتستقبل الجمعية مقرئى القرآن من مصر وغيرها من الدول الإسلامية فى شهر رمضان.

فى الجمعية أيضاً إدارة للشئون الدينية تنظم مسابقات القرآن كل سنتين على مستوى الصين كلها، ومسابقات للعاملين فى الوعظ والإرشاد، وتشرف الجمعية على مراقبة الذبح الحلال للتصدير وتعطى شهادة بأن الذبائح المصدرة للدول الإسلامية ذبحت وفقا للشريعة الإسلامية، وتقوم هذه الإدارة بالاتصالات مع الجمعيات فى الصين، وتتلقى رسائل وطلبات وشكاوى المسلمين فى المناطق. فإذا كانت هناك مخالفات تمس العقيدة الإسلامية تقوم الجمعية بإبلاغ الجهات الحكومية المركزية أو المحلية.

والجمعية تتفاوض مع الحكومات المحلية الآن لاسترداد المساجد والعقارات والأراضى التى تمت مصادرتها خلال الثورة الثقافية التى استمرت عشر سنوات وخربت كل ما كان فى الصين من إيجابيات..

وفى الجمعية إدارة لتحرير وإصدار مجلة «المسلم الصينى» باللغة الصينية ولغة «الويجور» وهى لغة المسلمين الذين يمثلون الأغلبية فى إقليم سينكيانج الذى يتمتع بالحكم الذاتى، وهناك إقليم ثان يتمتع بالحكم الذاتى وفيه أغلبية مسلمة هو إقليم «نيسن سيا».

وأخيرا فى الجمعية إدارة للدراسات والبحوث الإسلامية، وتشرف على مناهج الدراسة فى الشريعة الإسلامية، وتتولى طبع وإصدار الكتب الإسلامية باللغة الصينية، وقد أصدرت مؤخرا ترجمة «لتفسير الجلالين»، وكتاب «اللؤلؤ والمرجان» فى الحديث.

□□□

والصينيون يتبعون المذهب الحنفى، وغير مسموح لهم بالزواج بأكثر من زوجة واحدة، لأن قانون الزواج الذى صدر فى عام ١٩٥٠ وكان أول قانون صدر بعد تأسيس الجمهورية، ألغى نظام الزواج الإقطاعى الذى كان قائما

على الزواج القسرى والإجبارى وتعدد الزوجات واحترام الرجل واحتقار المرأة، وتجاهل مصلحة الأولاد، ووضع هذا القانون نظام الزواج الجديد الذى يكفل حرية الزواج للرجل والمرأة، ولكل رجل زوجة واحدة، ومحظور الجمع بين أكثر من زوجة، وأدى هذا القانون إلى التقليل من ظواهر ضرب وإهانة وظلم المرأة، كما قللت إجراءات الحكومة من ظواهر الدعارة، والاتجار بالمخدرات وتعاطيها، وألعاب القمار، وهذه الظواهر كانت منتشرة فى الصين القديمة، والجمعية الإسلامية تعمل على ترسيخ القيم الجديدة لأنها تتفق مع مبادئ الشريعة الإسلامية. وكان أول قرار فى هذا الاتجاه هو قرار المؤتمر الثانى لنواب الشعب فى نوفمبر ١٩٤٩ بحظر الدعارة، وإغلاق جميع دور الدعارة، وإلحاق الداعرات بمدارس لمساعدتهن على اكتساب قيم جديدة، ومهارات جديدة للعمل والكسب الحلال، وعلاج الأمراض الجنسية، وساعد المسلمون فى محاربة الدعارة التى ظلت مباحة فى الصين لمدة اكثر من ثلاثة آلاف سنة، كما شاركت الجمعية الإسلامية فى محاربة المخدرات وساندت جهود الحكومة فى فرض عقوبات صارمة على تجار المخدرات وأوكار القمار، وقد نجحت الصين الجديدة فى قطع دابر هذا الطاعون الاجتماعى الذى كان سائدا ومتغلغلا فى الصين القديمة.

والزواج بين المسلمين يتم تسجيله أولا فى المكتب الحكومى المختص بذلك، ثم تقام مراسم الزواج بالصيغة الشرعية على يد الإمام فى مسجد المنطقة، وكذلك يتم الطلاق بالتسجيل فى المكتب الحكومى أولا.

□□□

بعد أن شربنا الشاى الصينى الأخضر عدة مرات، وقمت بجولة فى أنحاء «المركز الإسلامى»، قلت للحاج محمد سعيد مايون فو:

- وماذا تطلب من الأزهر أو وزارة الأوقاف فى مصر؟.

قال:

- لدينا رغبة فى أن يزور الصين الإمام الأكبر شيخ الأزهر، وارجو أن تنقل هذه الرغبة إلى فضيلته.. كذلك أتمنى أن تزور الصين بصفة دائمة وفود من جامعة الأزهر، ومن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ومن الأزهر الشريف، وفود كل منها مكون من ٣ أو ٤ أو ٥ أساتذة ليلتقوا بالأئمة الصينيين وبالمسلمين فى المساجد والجمعيات الإسلامية.. وأتمنى أن يجد قسم تعليم اللغة العربية فى «معهد الدعوة الإسلامية» التابع للجمعية مساعدة من مصر بإرسال معلمين وكتب.. وأخيرا أتمنى إرسال مجموعات من الكتب الإسلامية الأساسية لتكوين مكتبات، ولدينا أقسام للغة العربية فى بعض كليات وجامعات الصين وتخرج كثيرين يجيدون اللغة العربية ويمكنهم قراءة هذه الكتب وترجمة بعضها إلى اللغة الصينية.

وعندما كنت أغادر المركز الإسلامى قال لى الحاج البروفيسور مصطفى يانج تشى بوه إنه يزور القاهرة ويعرف كثيرا من القيادات الإسلامية فى الأزهر، وجامعة الأزهر، ويشارك فى مؤتمرات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وختم كلامه بقوله:

- أرجو أن تنقل تحياتنا وشكرنا للحكومة المصرية، وجامعة الأزهر، لتخصيص ١٥ منحة سنويا للطلبة الصينيين للدراسة فى جامعة الأزهر، و ٥ منح لدراسة الوعظ والإرشاد، وتخصيص اثنين من الصين لتمثيل مسلمى الصين فى «المجلس الأعلى للشئون الإسلامية». ونحن نشكر السفير المصرى الدكتور نعمان جلال لأنه دائم الاتصال بنا ومساعدتنا ونشعر أنه دائما قريب منا (وقد انتهت فترة السفير نعمان جلال الذى لاحظت أنه يتمتع باحترام فى كل مكان وله صلات بكل الجهات فى الصين).

□□□

من حين لآخر تنشر الصحافة الغربية أنباء عن الاضطهاد الذى يلقاه المسلمون، وعن ثورات وتمرد ومحاولات للانفصال والاستقلال، خصوصا فى إقليم «سنكيانج» حيث الأغلبية المسلمة.. وهذه الثورات ليست جديدة ولكنها ممتدة من قبل ثورة ماو ولها أسباب.. فالصينيون لا يؤمنون بدين من الديانات السماوية وكانوا منذ القديم يؤمنون بديانات وثنية، ثم أصبحوا يؤمنون بعقائد خاصة اشهرها الكونفوشية، نسبة إلى «كنفوشيوس» ودعوته مجموعة من الوصايا والتعاليم الروحية والأخلاقية تدعو إلى العمل الجماعى وفناء الفرد فى الجماعة، وإلى عدم الاهتمام بالمظاهر المادية، وإلى التفانى فى العمل كنوع من العبادة، وهكذا.. وبعد الثورة الشيوعية التى قادها ماوتسى تونج أصبحت الماركسية هى عقيدة الصين، والبديل عن الدين. والماركسية، كما هو معروف، نظرية مادية، لا تؤمن إلا بالمادة، وترفض كل فكر أو عقيدة خارج إطار المادة، ونتيجة لذلك فإن التناقض أمر حتمى بين من يؤمنون بالمادة وينكرون وجود «الله» وبين من يعتنقون ديانات سماوية ويعبدون «الله».

□□□

على أن مشاكل المسلمين فى الصين تمتد إلى ما قبل الثورة، وعلى مدى العصور، عرضها الأستاذ فهمى هويدى بعد رحلته إلى الصين فى سنة ١٩٨١ فى كتاب «المسلمون فى الصين»، فقد تحدث عن مناطق تجمع المسلمين فى إقليم «سينكيانج» على الحدود المتاخمة للاتحاد السوفيتى، وفى «شيان» العاصمة القديمة للصين، وآخر نقطة فى «طريق الحرير» الذى كان يربط الصين ببلاد العرب والفرس مارا بأفغانستان، وكان التجار العرب يقطعون هذا الطريق لجلب الحرير الذى توصلت إليه الصين وظلت فترة طويلة محتفظة بسره، وعن طريق التجار العرب وصل الإسلام إلى الصين.

يذكر التاريخ أن أول مندوب عربى وصل إلى الصين كان موفدا من الخليفة عثمان بن عفان، والتقى هذا المبعوث بامبراطور الصين فى ٢٥ أغسطس عام ٦٥١ ميلادية فى العاصمة «شيان» ونقل إلى الامبراطور أنباء ظهور الدين الجديد الذى يدعو إلى التوحيد، وأرسل الامبراطور بعثة من أتباعه إلى خليفة المسلمين للوقوف على حقيقة هذه القوة الصاعدة فى الجزيرة العربية، ونشأت بعد ذلك علاقات وثيقة بين امبراطور الصين والدولة الإسلامية، حتى إن امبراطور الصين حين أراد إخماد حركة تمرد واسعة استعان بالخليفة أبو جعفر المنصور العباسى فلم يتردد الخليفة وأرسل ٤ آلاف رجل من جيش المسلمين استطاعوا مساعدة الامبراطور فى استرجاع عرشه، وبقى هؤلاء الجنود فى الصين وتزوجوا صينيات، وساهموا فى إيجاد سلالة من الصينيين المسلمين.. ويقال أيضاً إن مسلمى جنوب ووسط الصين هم أحفاد جنود قتيبة بن مسلم قائد جنود الخليفة أبو جعفر المنصور.

وبعد عام ١٠٦٣م زاد حجم التجارة بين الصين والعرب والفرس، مما شجع كثيراً من التجار العرب على الرحيل إلى الصين.. وتروى قصص كثيرة عن التكريم الذى لقيه هؤلاء التجار من الامبراطور فى ذلك الوقت، ومن الأدلة على ذلك أنه تم اكتشاف آلاف من الأوانى من الخزف صنعت فى الصين ونقلت إلى مصر على يد التجار عبر الشام، فى عهد أحمد بن طولون فى منتصف القرن التاسع الميلادى، وبرع المصريون فى تقليد هذه الأوانى فى عهد الدولة الفاطمية ، والدولة المملوكية، وكذلك عثر الأثريون على كميات من هذه الأوانى الصينية فى العراق.

كان التجار العرب ينقلون من الصين الحرير، والخزف، والشاى، كما نقلوا صناعة الورق. وكان الصينيون أول من اخترع هذه الصناعة، ثم أنشئ أول مصنع للورق فى العالم خارج الصين فى بغداد على أيدى العرب عام ٧٩٤، ودخلت الطباعة بغداد فى هذه الفترة أيضا، ثم انتقلت صناعة

الورق إلى دمشق، ثم إلى القاهرة والإسكندرية، ومن الإسكندرية انتقلت إلى أوربا فعرفت أوربا لأول مرة صناعة الورق، وبدأت فى صقلية، ثم أسبانيا وانتشرت بعد ذلك.. كما نقل العرب من الصين صناعة البارود وصناعة الإبرة المغناطيسية، وهما من المخترعات الصينية.. وفى المقابل نقل العرب إلى الصين علوم الطب، والرياضيات، والفلك، واستخدامات الأعشاب فى صناعة العقاقير الطبية، ونقلوا إليها أيضا الأحجار الكريمة مثل الياقوت والزمرد، واللبان العربى، والحلبة، وجذور الداتورة، ولم يكن أهل الصين يعرفون شيئا من ذلك..

وفى مرحلة من المراحل كان ابن سينا وكتبه المرجع الأساسى للمشتغلين بالطب فى الصين، ونقلت مؤلفاته ومصطلحاته الطبية إلى اللغة الصينية، وتأثرت صناعة الطب والأدوية فى الصين بمنهج ابن سينا.. ولذلك لم يكن غريبا أن تقيم الصين احتفالا كبيرا عام ١٩٥٢ فى ذكرى مرور ألف عام على ميلاد ابن سينا، وقدمت فى مؤتمر علمى كبير أبحاثاً متخصصة عن تأثير ابن سينا على علوم الطب وصناعات الأدوية فى الصين.

ونقل العرب إلى الصين أيضا خيال الظل، ولعبة «السيجة».

❐❐❐

وفى الصين اعتراف بأن الإسلام حقق قفزة واسعة فى البلاد فى عصر مملكة (يوان) المغولية من سنة ١٢٧١ إلى سنة ١٣٦٨ ميلادية، وبدأت بحفيد جنكيز خان «قوبلاى خان».. وإن كان قوبلاى خان قد انقلب على المسلمين فى البداية بسبب وشايات يقال إن مصدرها ابن أخيه «أباقا» وهو ابن هولاكو الذى قضى على الخلافة العباسية.

ونتيجة لهذه الوشاية من عدو المسلمين أمر الامبراطور «قوبلاى» بإنزال الأئمة الصينيين من على المنابر، وإكراههم على أكل اللحوم المخنوقة على طريقة المغول، وبعد سبع سنوات من ممارسته للاضطهاد على المسلمين

كان المسلمون قد خرجوا تباعا من الصين إلى جزر الهند الشرقية، ثم ذهبوا إلى العراق ومصر، وأدى ذلك إلى نقص واردات الحكومة، فاضطر الامبراطور إلى التراجع وأنشأ مسجدا فى «خان بالق» وهى «بكين» الآن قيل إنه كان يسع مائة ألف شخص.. وذلك لاسترضاء المسلمين ليعودوا.. وعاد بعضهم بالفعل..

وبعد ذلك- فى عهد أسرة (يوان) شهد المسلمون مرحلة أخرى من الحرية، وتولوا المناصب الكبرى، وانفتحت الصين أكثر على العالم الإسلامى تجاريا وثقافيا، وزادت حركة السفن والقوافل بينها وبين العالم الإسلامى، ونقلت الكتب العربية إلى اللغة الصينية وبخاصة فى الطب، والصيدلة، والكيمياء، والفلك، وغيرها..

وفى هذا العهد أنشئت دار لصناعة الأدوية كان يشرف عليها طبيب عربى مشهور اسمه يوسف وعمل معه فيها عدد من الأطباء العرب.. وفى مكتبة جامع بكين وجد فهمى هويدى بقايا موسوعة طبية تحتوى على ٣٦ جزءا تعتمد على طريقة ابن سيناء فى كتابه المشهور «القانون» الذى علم العالم الطب وعلم الأدوية.

□□□

ويذكر ابن بطوطة ضمن حديثه عن رحلته إلى الصين أنه وجد فى ميناء كانتون المسجد الجامع، ووجد أن للمسلمين الصينيين قاضياً، وشيخاً، كما وجد فى كل بلد من بلاد الصين شيخاً للإسلام يرجع إليه المسلمون فى أمورهم، وقاضياً يحكم بينهم، ويذكر ابن بطوطة أنه وجد الصينيين المسلمين يعيشون فى تجمعات خاصة بهم، وفيهم الفقهاء، ويتركز وجودهم فى السواحل، وهم خليط من الصينيين، والعرب، والفرس، والأتراك.

بعد ذلك جاءت أسرة «مينج» إلى الحكم من عام ١٣٦٨ إلى ١٦٤٤ ميلادية، وكان المسلمون فى الجيش، ويمارسون الزراعة، ولكن حكام هذه الأسرة

اتجهوا إلى فرض العزلة على الصين، فتقطعت الصلات مع العالم الإسلامى، واندمج المسلمون فى المجتمع الصينى، وتزوجوا صينيات، وأقاموا مساجد كثيرة.. وظهر أول عالم إسلامى صينى اسمه «خرونج تشو» حوّل المساجد إلى مدارس فى القرن السادس عشر، وسار تلاميذه على نهجه من بعده. فانتشرت المدارس فى المساجد، حتى إذا ما انتهى عهد أسرة «مينج» كان قد ظهر علماء صينيون تخصصوا فى علوم القرآن، والحديث والفقه والتوحيد، ولهم مؤلفات قيمة. ويذكر فهمى هويدى أربعة أئمة منهم لهم مؤلفات مهمة باللغة الصينية عن الشريعة الإسلامية، والسيرة، وأحكام الإسلام، وأصول الدين.

وأصبح المسلمون يحملون أسماء صينية إلى جانب أسمائهم العربية، وتنوعت مجالات النشاط الاقتصادى لهؤلاء المسلمين، وأصبحوا مواطنين لهم حقوق يدافعون عنها، وتمردوا أكثر من مرة عندما وجدوا أنهم لا يحصلون على حقوقهم كمواطنين، ودفعوا ثمنا باهظا لذلك من أرواحهم وممتلكاتهم.. حتى إذا جاء النصف الثانى من عهد أسرة «مانشو» اشتد الاضطهاد والعذاب..

وفى عام ١٦٤٨ ميلادية قام مسلمو مقاطعة «هانج تشو فو» بثورة ضد الحكومة للمطالبة بالحرية الدينية، وتكررت ثورات المسلمين بعد ذلك، وازداد القمع، حتى إن الفترة بين عامى ١٧٥٨ و١٨٧٣ شهدت خمس ثورات كبرى لمسلمى الصين. وكان سلاح الضرائب سوطا من السياط الحادة التى تلهب ظهورهم طوال حكم «المانشو»، وقبيل نهاية القرن ١٩ كان المسلمون الصينيون قد انكسرت شوكتهم واتجهوا إلى الأنشطة التربوية والتعليمية.

□□□

وفى عهد السلطان عبد الحميد حاول أن يقيم علاقات بين الدولة العثمانية ومسلمى الصين، فأرسل أحد رجاله لتقصى أخبارهم، وكان هذا

المبعوث هو أنور باشا سنة ١٩٠٠ لكن مهمته لم تنجح.. بعد ذلك زار الأستانة إمام مسجد بكين والتقى بالسلطان عبد الحميد واقترح عليه إرسال بعثة إسلامية إلى الصين، فأوفد السلطان اثنين من الأتراك أسسا مدرسة فى مسجد العاصمة الصينية، لكن الحكومة الصينية حاربت هذه البعثة، لأنها- فيما يقال- كانت تدعو مسلمى الصين إلى الانضمام إلى الخلافة العثمانية.

□□□

وبسبب الاضطهاد الذى لاقاه المسلمون فى عهد أسرة المانشو انضموا إلى ثورة صن يات صن عام ١٩١١، وفى المقابل اعترفت بهم هذه الثورة باعتبارهم أحد العناصر الخمسة التى تتكون منها الصين، وأنشئت أول جمعية لمسلمى الصين باسم «جمعية التقدم الإسلامية» ومقرها الرئيسى فى بكين، كما أنشئت مجلة «نور الإسلام» ومجلة «العلوم الإسلامية» ثم مجلة «المنبه الإسلامى» فى مدن متفرقة. وأنشأت «جمعية التقدم الإسلامية» مدرسة ابتدائية لتعليم الأطفال الدين الإسلامى، ثم أنشأت مدرسة ثانوية تدرس للتلاميذ اللغة العربية إلى جانب اللغة الصينية، والعلوم الدينية إلى جانب العلوم الحديثة، واعترفت وزارة التعليم بالمدرستين: وانتشرت بعد ذلك المدارس الإسلامية.

ولانعدام الصلات بالعالم الإسلامى أخذت مفاهيم الإسلام فى الصين تتشكل بصورة خاصة، وتختلط بالمعتقدات والتقاليد الصينية الوثنية القديمة، وأصبح الإسلام بالنسبة للمسلم العادى مجموعة من الأسرار لا يعرفها إلا رجل الدين، مما فتح الباب لنشأة ظاهرة جديدة أقرب إلى «الكهنوت» وأفكار ومعتقدات غريبة عن الإسلام، وأدى إلى انتشارها نقص الثقافة الإسلامية، وعدم الإلمام الكافى باللغة العربية، ولم يكن المصحف متوفرا.

□□□

وفى القرن العشرين، فى عام ١٩٣١ سافرت إلى مصر أول بعثة من مسلمى الصين للدراسة فى الأزهر، وكانت تضم خمسة من الشباب، أوفدتهم «جمعية التقدم الإسلامية» على نفقتها وكان بينهم عبد الرحمن ناجونج.

وكتب عبد الرحمن ناجونج مقالا باللغة العربية عن أحوال المسلمين الصينيين، قال فيه: «إن العلماء فى الصين كانوا يبالغون فى ثواب النوافل، فاشتغل المسلمون بها عن الواجبات، فكان أكثرهم لا يصلون الفرائض، ولا يصومون رمضان، ولا يخرجون الزكاة، ولا يؤدون فريضة الحج، ويهتمون بإقامة المآتم ليقرأ فيها العلماء المسلمون بعض قصار السور من جزء عم، أو جزءا من أجزاء القرآن، ويصلون على النبى بالترجيع والتغريد، ثم يجلسون إلى مائدة فاخرة ويتلقون الصدقات، وإذا جاء مولد النبى (صلى الله عليه وسلم) ومولد السيدة فاطمة أقاموا حفلة بصدقات المسلمين، وعملوا الولائم فى أروقة المساجد يحضرها المسلمون والمسلمات ليسمعوا القرآن والوعظ، وعندما يحين وقت الصلاة يصلى بعضهم، وبعضهم يأكلون ويشربون، فلما وجد بعض علماء الدين الخطر فى هذه العادات نصحوا المسلمين بأداء الفرائض بدلا من النوافل، وأخذوا يحرمون الطعام والصدقة لمن يتلو القرآن، فعارضهم المتعصبون والمنتفعون، ووقعت الفتنة بينهم غير مرة، وإن كانت الخصومة الآن أقل مما كانت بحمد الله».

هذا الوصف لحال المسلمين فى الصين فى ذلك الوقت يكشف عن غياب الفهم الصحيح للإسلام، والاكتفاء بالظاهر، حتى إن الزائر يلتقى بمسلمين لا يعرفون من الإسلام غير «السلام عليكم».. ونتيجة انتشار العابد البوذية تأثر المسلمون بها، فانتشرت ظاهرة الأولياء وأضرحتهم.

□□□

ويذكر كتاب «الصين المتحررة» الذى صدر فى الصين عام ١٩٥٦ العديد من ثورات المسلمين ضد الظلم الواقع عليهم وراح فيها من الضحايا عشرات

الآلاف حتى إنهم كانوا يسمون عيد الفطر عيد الدموع، وعيد الأضحى عيد الذل، إلى أن جاءت ثورة ماو تسى تونج عام ١٩٤٩، وانضم إليه المسلمون فى ثورته على تشانج كاى تشيك، وشاركوه فى «المسيرة الكبرى» وتصدروا الصفوف فى المعارك، ومات منهم كثيرون، ولذلك قال ماو:«من المستحيل علينا أن نحقق رسالتنا إذا لم نكسب المسلمين إلى جانبنا، ونضمهم إلى جهتنا».. ووعد ماو المسلمين بإقامة حكومة لهم مستقلة ذاتيا، وإلغاء الضرائب والديون والفوائد القديمة والتجنيد الإجبارى الذى كان يلزمهم بالخدمة فى جيوش الأمراء، كما وعدهم بحماية حرية العقيدة للجميع، وحماية الثقافة الإسلامية والتراث الإسلامى، وتنفيذا لهذه الوعود أصدر قائد الجيش الأحمر، جيش ماو، الأوامر إلى الجنود من غير المسلمين بحرم عليهم دخول المساجد، وأكل لحم الخنزير، ودخول بيوت المسلمين بدون استئذان، والنظر إلى النساء، وجمع التبرعات من المسلمين أو مصادرة ممتلكاتهم.

قبل ذلك كان موقف المسلمين صلبا فى مقاومة الاحتلال اليابانى من ١٩٣٧ إلى ١٩٤٥ وشكلوا فصيلة باسم «الجحافل الحديدية» بقيادة ضابط مسلم اسمه مابن تشاى خاضت معارك طاحنة مع اليابانيين فى شمال الصين، وحققت انتصارات باهرة.

ويذكر فهمى هويدى نقلا عن دراسة لأحد الباحثين الصينيين أسماء عدد من شيوخ الإسلام الصينيين فى الفترة من ١٩١١ إلى ١٩٤٩ منهم: الشيخ «وانج جينج تشاى» وكان إماما ومعلما ومحررا لمجلة نور الإسلام التى أنشأها، وقد ترجم القرآن الكريم، وترجمته هى أفضل ترجمة ظهرت بالصينية، كما ترجم كتاب «العمدة» وهو كتاب الفقه الشائع فى الصين، ووضع القاموس العربى الصينى.. والشيخ محمد تواضع بانج الذى توفى عام ١٩٥٨ وهو عالم أزهرى عمل إماما ومعلما ومحررا، وكان أول من جلب حروف الطباعة العربية إلى الصين مما ساعد على نشر الثقافة

الإسلامية، وألف كتابا بعنوان «تسع سنوات فى مصر» وترجم كتاب «تاريخ التشريع الإسلامى» وكتاب «رسالة الإسلام» و«مذاهب الدين الإسلامى» وغيرها.. ونشر مقالات فى مجلة «هلال الصين».. والشيخ ماليانج جيون المتوفى عام ١٩٥٧ وكانوا يعتبرونه إمام أئمة الصين، وله مؤلفات إسلامية، وترجمات لكتب دينية، ويقال إنه أنفق أمواله فى طبع الكتب ومساعدة فقراء ويتامى المسلمين، وعاش حياة زهد وتقشف، ولم يترك بعد وفاته غير بعض الكتب، وعمامته، ومسبحته.. والأستاذ محمد مكين، درس فى الجامع الأزهر ودار العلوم، وعمل أستاذا فى جامعة بكين ٣٠ عاما، وتوفى عام ١٩٧٨، ومن مؤلفاته باللغة الصينية :«سيف محمد» و«موجز شرح القرآن الكريم» و«رسالة التوحيد»، و«حقيقة الدين الإسلامى» و«تاريخ علم الكلام» و«تاريخ التعليم الإسلامى» و«تاريخ العرب»

ومن أهم ما فى هذه الفترة الإعلان الرسمى باعتبار المسلمين أحد عناصر الأمة، والنص فى الدستور على حقهم فى التمثيل فى البرلمان، وهكذا تم انتخاب ١٧ من المسلمين أعضاء فى الجمعية الوطنية. وبعد ثورة ماو وصل عدد كبير من المسلمين إلى عضوية الدورة الأولى للمؤتمر الاستشارى الوطنى، واشتركوا فى أول مجلس لنواب الشعب، وفى المجالس الإقليمية، وتولى عدد كبير منهم مناصب مهمة فى الحكومة المركزية، وفى الحزب، وفى الحكومات المحلية.

□□□

وقد تأسست «الجمعية الإسلامية الصينية» عام ١٩٣٥، وحققت نتائج طيبة تحت قيادة الحزب الشيوعى، إلى أن جاءت فترة الاضطراب التى استمرت عشر سنوات من ١٩٦٦ حتى ١٩٧٦ باسم «الثورة الثقافية» وقادتها زوجة ماو- وهو ما زال على قيد الحياة- ولم تكن وحدها، وشاركها فى قيادة هذه الثورة الثقافية «عصابة الأربعة» التى فككت كل الإنجازات التى

تحققت ، ودعت مئات الملايين من الشعب الصينى إلى ترك أعمالهم والقيام بمظاهرات لتأييد هذه الثورة، وكانت النتيجة أن توقفت المصانع، والمزارع، وأصيبت عملية التنمية بالشلل، واعيد عشرات الآلاف من الطلبة الصينيين الذين كانوا يدرسون فى جميع أنحاء العالم، بما فى ذلك الذين كانوا يدرسون فى جامعة الأزهر وجامعة القاهرة، وتوقفت أيضا الجمعية الإسلامية عشر سنوات شأنها شأن جميع مرافق الحياة فى عملية التخريب الكبرى التى شهدتها الصين، وعادت فيها إلى الوراء خطوات، ثم استأنفت مسيرتها بعد السنوات العشر العجاف.

فى سنوات الثورة الثقافية أغلقت المساجد، وعطلت الشعائر الإسلامية، وبعد انتهاء هذه الردة عادت الأمور إلى طبيعتها لإصلاح ما فسد، وأعلنت الحكومة أن حرية العقائد الدينية مكفولة.

□□□

والحقيقة أن الثورة الشيوعية، برغم أنها لا تؤمن بالأديان، وتؤمن فقط بالماركسية المادية، فإنها أعطت المسلمين من الحرية ما لم يحصلوا عليه فى ظل حكم «المانشو» ونص أول دستور للثورة صدر فى عام ١٩٥٤ على مبدأ حرية الاعتقاد الدينى، فعقد أول مؤتمر للمسلمين الصينيين فى مايو ١٩٥٣، وفى عام ١٩٥٤ صدرت مجلة باسم «مسلمى الصين»، وفى عام ١٩٥٥ أنشئ أول معهد إسلامى تابع للجمعية الإسلامية، وطبع القرآن الكريم لأول مرة باللغة العربية، وخرجت أول بعثة صينية للحج حرصت على زيارة المسجد الأقصى وهى فى طريقها إلى الأراضى المقدسة.

لكن عام ١٩٥٨ شهد خطوة إلى الخلف، بعد تنفيذ الثورة لنظام الكميونات الزراعية، فأغلقت المساجد وتم تحويلها إلى منشآت اقتصادية، وتم تجنيد الأئمة للعمل فى الكميونات، وتوقف بالتالى المعهد التابع للجمعية الإسلامية عام ١٩٥٩ وكان النافذة الوحيدة لمسلمى الصين كى يدرسوا علوم القرآن

والحديث والفقه واللغة العربية، وتوقفت مجلة «المسلمون» واستمرت هذه الفترة المظلمة من عام ١٩٥٩ حتى عام ١٩٧٦، ولم يعد فى الصين كلها سوى ١٠٠ شخص فقط هم كل من بقى ممن درسوا شيئا عن الإسلام. وبذلك لم يكن ممكنا إعداد كوادر إسلامية للقيام بوظيفة إمام المسجد والخطابة والوعظ والتوجيه.

ازمة أخرى تعرض لها المسلمون فى عام ١٩٦٠ حين تم تهجير آلاف من الأسر من غير المسلمين ومن أصول عرقية أخرى، إلى مقاطعة «سنكيانج» التى تعيش فيها الأغلبية المسلمة، بقصد تغيير التركيبة السكانية فى هذه المقاطعة، فلا يكون المسلمون اغلبية، ويضيع صوتهم وسط زحام غير المسلمين. والقضاء على محاولات المسلمين للانفصال أو الحكم الذاتى المستقل.

وجاء عام ١٩٧٨ بمرحلة جديدة فى كل شىء.. فى الفكر السياسى والأيديولوجى.. وفى فلسفة التنمية بإنهاء حالة الانغلاق والعزلة واتباع سياسة الانفتاح الاقتصادى والسياسى على العالم، والأخذ بنظرية جديدة هى نظرية «اقتصاد السوق الاشتراكية» أو «الاشتراكية ذات الخصائص الصينية» كما يسمونها فى محاولة للجمع بين الفكر الغربى الرأسمالى القائم على اقتصاد السوق، والفكر الاشتراكى الماركسى القائم على سيطرة الدولة والتخطيط المركزى.. ومع سياسة الانفتاح على الخارج كان لابد أن يتحقق الانفتاح فى الداخل أيضا.. فحدثت انفراجه ملحوظة فى الحريات السياسية وأصبح الاختلاف فى الرأى مسموحا به داخل إطار نظرية «اقتصاد السوق الاشتراكية» والمبادئ التى أعلنها الزعيم دنج شياو بنج والتى تعتبر تطويرا لأفكار ماوتسى تونج، ومرحله جديدة فى السياسة الداخلية والخارجية للصين، مع الحفاظ على قيادة الحزب الشيوعى للبلاد والأخذ بنظام «المركزية الديمقراطية».. وتتلخص فى «الحرية بمفهوم الحزب الشيوعى وبقيادته»..

وفى سنة ١٩٧٨ تم تعديل الدستور ونص فيه على أن جميع المواطنين لهم حرية الاعتقاد الدينى، كما أن لهم الحق فى عدم الاعتقاد، وفى الدعوة إلى الإلحاد.. وقبل ذلك فى عام ١٩٧٩ وضعت مادة جديدة فى قانون العقوبات نصها:«يعاقب موظفو الحكومة بالسجن لمدة أقصاها سنتان، أو بالحبس، إذا أفرطوا فى تجريد المواطنين من حريتهم فى عقيدتهم الدينية، أو انتهكوا أعراف وعادات أبناء الأقليات القومية بالمخالفة للقانون»..

وهكذا عادت بعثات الحج من مسلمى الصين، كما بدأت زيارات مسلمى الصين إلى الدول الإسلامية لحضور الندوات والمؤتمرات، وكانت البداية فى «الملتقى الإسلامى» بالجزائر عام ١٩٧٩، وبعد ذلك أعيد فتح المساجد المغلقة فى عموم الصين، فأضاءت مآذن ١٩٠٠ مسجد فى إقليم «سنكيانج» وحده، وأعادت الحكومة العمل بقرار منح المسلمين إجازة فى عيدى الفطر والأضحى.

وكان فهمى هويدى أول صحفى عربى أو مسلم يدخل إقليم «سنكيانج» بعد أن أصبح مسموحا بزيارة الأجانب له بعد أن ظلت مثل هذه الزيارات ممنوعة منذ عام ١٩٤٩ وحتى عام ١٩٧٨، فرأى فى هذا الإقليم مجتمعا مسلما بكل وضوح، لا يختلف فى الشكل عن أى بلد إسلامى، ولم تفلح عملية تهجير أبناء الديانات والقوميات الأخرى فى تغيير طبيعته، ورأى أن المسلمين فى هذا الإقليم متمسكون بتقاليدهم الإسلامية ومعظمهم من قومية «هوى» من ذوى الأصول العربية والفارسية.. وفى هذه القومية فإن المسلم له اسمان اسمه الصينى وهو الاسم الرسمى المدون فى شهادة الميلاد وفى معاملاته، والثانى اسمه الدينى مثل محمد أو محمود أو على أو حسين أو فاطمة أو مريم أو سليمة أو خديجة.. إلخ.. وحين يولد الطفل فى الأسرة المسلمة يستدعون الإمام ليتلو بجواره آيات من القرآن الكريم والأدعية فيكون الآذان هو أول ما اخترق أذنيه ، ثم يقوم الإمام باختيار الاسم الدينى

للمولود.. أما المسلمون من غير قومية «هوى» فى إقليم «سنكيانج» وما حولها فليس لديهم هذا الازدواج فى الأسماء ولكل واحد منهم اسم واحد، وهو اسم إسلامى صريح، هو وأبوه وعائلته مسجل فى شهادة الميلاد وفى معاملاته ووثائقه، ويرجع ذلك إلى الظروف التاريخية التى جعلت المسلمين من قومية «هوى» يحاولون الاندماج فى المجتمع والثقافة الصينية ويكتسبون شرعية الوجود واعترافا بهم، بينما كان لدى غيرهم الشجاعة على الظهور والتعامل بوجه واحد دون مجاملة أو مداراة..

□□□

والطفل المسلم تحرص أسرته على أن يختن فى سن الرابعة، ويحفظ الشهادتين والفاتحة فى الخامسة، ويذهب إلى المسجد ليتعلم على يد الإمام الحروف العربية، وبعض سور والقرآن، وبعض مسائل فى النحو والفقه..

ودور الإمام يبدأ مع ولادة الطفل، ثم تعليمه ويمتد إلى عقد الزواج، بالصيغة الشرعية بعد توثيق الزواج فى المكتب الحكومى المختص، ويستمر دوره فى الأعياد ويكون الاحتفال بها فى فناء المسجد، ويحرص المسلمون على صلاة الجمعة والاستماع إلى خطبة الإمام. وللإمام دور آخر مهم فى الجنازات فهو يشرف على كل الإجراءات من الغسل والكفن والدفن وقراءة القرآن على القبر..

ومما يثير الحساسيات فى المجتمع الصينى تمسك المسلمين بعدم أكل ما لم يذبح بالطريقة الإسلامية وتحت إشراف الإمام ورفضهم لأكل لحم الخنزير، بينما يأكله سائر الصينيين ولذلك تنتشر «المطاعم الإسلامية». وبلغ من كراهية المسلمين للخنزير أنهم لا يطيقون سماع اسمه حتى إن قائد الجيش الأحمر أثناء ثورة ماو حذر جنوده من النطق بكلمة خنزير فى مجتمعات المسلمين..

□□□

وخلال رحلتى فى الصين حاولت أن أرصد التغير الذى حدث فى أحوال المسلمين منذ عام ١٩٨١ عندما زارها فهمى هويدى وعام ٢٠٠١ عندما زرتها، وقد لاحظت ان أحوال المسلمين تغيرت، كما تغير كل شىء فى الصين.. وانعكست الدعوة إلى توسيع نطاق الحريات، وحقوق الإنسان فى دعم الحكومة الصينية للنشاط الإسلامى، وتعيين وزير مسلم فى الحكومة المركزية، وزيادة نصيب المسلمين فى الوظائف القيادية، والحرص على الآثار الإسلامية فى الصين.

وما تبقى من آثار عربية وإسلامية فى الصين نوعان: المساجد والمقابر، خاصة مقابر الأولياء والصالحين، وفى الصين ٦٠ مسجدا قديما يرجع تاريخها إلى بدايات ظهور الإسلام فى القرن السابع الميلادى (بين القرنين الرابع عشر والتاسع عشر) ومن هذه المساجد أربعة هى الأقدم والأهم فى الساحل الجنوبى والشرقى، وهى مسجد «هوا يشنج» (الحنين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم) فى مدينة قوانجشو، ومسجد «الأصحاب» فى «شوانتشو» و«مسجد العنقاء» فى «هانجتشو» و«مسجد اللقلق» فى «يانجتشو»، وتجمع المساجد فى الصين بين مميزات العمارة الصينية كما تراها فى المعابد والقصور فهى من الخشب والقرميد والأسقف جمالونية وبلا مآذن واضحة، إنما أبراج قليلة الارتفاع، والمساجد بشكل عام بحالة جيدة، وكلها مستخدمة فى تأدية شعائر الصلاة..

أما مقابر المسلمين فى الصين فهى غالبا بجوار المساجد، وتبدو العناية الخاصة بأضرحة الأولياء والصالحين منهم، ولا تتوافر معلومات مؤكدة عن المدفونين فيها، وقد تم تنظيمها على شكل حدائق عامة، ولها قدسية عند المسلمين ويقال إن المسلمين الصينيين يحرصون على زيارة هذه المقابر ويؤدون بعض الطقوس أشبه بالحج.

فى مقاطعة «نيجسيا» مثلا مليون و٨٠٠ ألف مسلم وسكان المقاطعة كلهم ٤ ملايين ونصف مليون، وفى هذه المقاطعة ٢٠٠٠ جامع، وتتمتع بالحكم الذاتى وفى هذه المقاطعة مدينة اسمها«كونجشين» يطلقون عليها «مكة الصغيرة» تعبيرا عن أهمية الوجود الإسلامى. وفيها جامع كبير يرجع إلى القرن الثالث عشر..

وفى مقاطعة «فوجيان» عدة جوامع قديمة بقى منها «جامع الأصحاب» وتضم هذه المقاطعة آثارا عربية وإسلامية من مساجد ومقابر، خاصة فى مدينة «تشوانشو» التى كانت تجذب التجار العرب الأوائل على طريق الحرير البحرى منذ القرن السابع وحتى القرن الرابع عشر، وقد أطلق عليها الرحالة العربى ابن بطوطة اسم «زيتون».. وفى هذه المدينة أيضا «المقابر المقدسة» وتذكر الروايات الصينية أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل إلى الصين أربعة من الصحابة وأن أحدهم «أبو وقاص» دفن فى هذه المدينة ودفن الثانى فى مدينة «يانجوتشو» ومازال قبره مجهولا، بينما دفن الثالث والرابع فى هذه المقابر المقدسة، وهى عبارة عن حديقة مفتوحة للزوار، ويحج إليها الصينيون من مختلف الأنحاء للتبرك بضريحى الصاحبيين، وبدأت هيئة الآثار فى المقاطعة الإعداد لتوسيع الحديقة وبناء جامع فيها، وعلى مسافة ١٠ كيلو مترات مدينة «شين داى» وفيها جامع حديث ومتحف لتاريخ قومية «هوى» المسلمة.. وفى مدينة «شوانتشو» أيضا متحف بحرى حديث يشمل جناحا خاصا للآثار الإسلامية وجناحاً آخر يشمل الآثار التى تدل على تأثير الحضارة العربية والإسلامية فى هذه المنطقة..

وفى مقاطعة «شانسى» يوجد جامع شيان الكبير فى مدينة شيان عاصمة المقاطعة ويرجع تاريخه إلى منتصف القرن الثامن الميلادى وهو من أقدم المساجد فى الصين، مساحته ١٣ ألف متر وهو يجمع بين العمارة

الإسلامية والصينية ويتكون من ساحات واسعة واروقة على الجانبين، وعدة مآذن وأبراج وبوابات، توصل فى نهايتها إلى قاعة الصلاة الرائعة وهذا الجامع مسجل على قائمة التراث الوطنى، وفيه العديد من الآثار الإسلامية.

وفى مدينة «شيان» ٦ مساجد أخرى قديمة يرجع تاريخها إلى الفترة بين القرن الثامن والقرن الرابع عشر الميلادى.

وحين زرت هذا الجامع الكبير لاحظت وجود عشرات من السياح، ولاحظت أنه يلقى رعاية المسئولين عنه، وعلى جدران قاعة الصلاة كتبت آيات القرآن الكريم باللغة العربية، والقاعة مفروشة بالسجاد الفاخر،وعلى بابها اثنان من خدم الجامع يمنعان الزوار من غير المسلمين من الدخول، وحين قلت لهما «السلام عليكم» تهلل وجه كل منهما وقالا: «تفضل».. وبعد أن قضيت وقتا فى الداخل لاحظت وجود صندوق كبير مكتوب عليه باللغة العربية «صدقات».

وهذا الجامع الكبير يقع فى الحى الذى يسكنه المسلمون وأعدادهم كبيرة فى مقاطعة شانسى وفى مدينة «شيان» بالذات، وفى الطريق إلى الجامع تمر من شارع يذكرك بخان الخليلى فى القاهرة..عشرات المحلات تفرش بضاعتها فى الخارج على موائد كبيرة تضم التحف الصينية والإسلامية المقلدة والمسابح والمصاحف،وكل الباعة تقريبا من النساء، وكلهن يغطين رؤوسهن، وتلمح فى وجوههن ملامح عربية وفيهن سماحة وهدوء ولا تسمع الصياح التقليدى الذى تسمعه فى الأحياء الشعبية الصينية،وبعد هذا الشارع تسير فى شوارع مليئة بالمطاعم مكتوب عليها بالعربية والصينية «مطعم المسلم» أو «أطعمة إسلامية».

❐❐❐

وفى مقاطعة «جيانجسو» مدينة من أهم المدن اسمها «يانجو» تضم تجمعات وآثارا إسلامية على ساحل الصين الشرقى، وكانت هذه المدينة

مثل مدينة «شوانتشو» من المدن المهمة المرتبطة بطريق الحرير البحرى، وفى هذه المدينة ضريح كبير يقولون إنه يضم رفات أحد الصحابة الأربعة الذين أرسلهم الرسول صلى الله عليه وسلم وفيها أيضا ضريح التقى بهاء الدين، ويقولون إنه الحفيد السادس عشر للرسول صلى الله عليه وسلم. ويقولون أيضا إنه دفن فى عام ١٢٦٥ وأنه هو الذى شيد جامع «اللقلق» وهو من أهم الجوامع المعروفة فى الصين، وإلى جانب الضريح عدد من قبور الصالحين..

ويجرى الآن الإعداد لإقامة متحف ثقافى إسلامى كبير فى مدينة «شوانتشو» وهى مدينة جميلة لها ميناء كبير على الساحل الجنوبى الشرقى للصين، وكانت مشهورة فى العصور الوسطى كأحد جسور الاتصال مع العالم الإسلامى وسماها ابن بطوطة مدينة الزيتون، ويذكر التاريخ أن عشرة آلاف من المسلمين العرب وصلوا إلى هذه المدينة عبر الطريق الشاق الطويل بين القرن السابع والقرن الرابع عشر وجلبوا معهم البخور والعطور والتوابل والأدوية وعادوا بالحرير والفخار والخزف، وفتحوا بذلك الطريق البحرى لتبادل التجارة بين الصين والدول العربية، وهذا هو ما يطلق عليه اسم «طريق الحرير البحرى» وكان لهذا التبادل التجارى تأثير كبير على الصين، خاصة بعد أن استقر بعض التجار العرب فى المدينة ولقوا نفس المعاملة التى يلقاها المواطنون من أبناء الصين، وتزوجوا من صينيات وساهموا فى ازدهار المدينة..

وفى هذه المدينة أضرحة لأولياء صالحين من المسلمين واكتشفوا لوحات حجرية مكتوب عليها آيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وفيها أيضا مسجد الأولياء على الطراز العربى فى شارع تجارى وسط المدينة..

وسوف يقام المتحف الثقافى الإسلامى على الطراز العربى وأعد التصميم البروفيسور يانج هونجتشيون ويتكون من خمسة أدوار بما فيه المئذنة، ويشمل الدور الأول تمثال ابن بطوطة الرحالة العربى المشهور وصالة عرض

اللوحات الحجرية المنحوتة بالخط العربى، وكافيزيا ومحلاً لبيع التحف، وحديقة زهور، وصالة استراحة وورشة لترميم الآثار. ويشمل الدور الثانى صالة عرض للآثار الإسلامية وصالة أخرى لعرض العادات والتقاليد واستراحة، وفى الدور الثالث مكتب لمدير مركز الدراسات الإسلامية ومكتب الخبراء ومكتبة للاطلاع وقاعة للندوات وغرفة استقبال ومصلى ومكتب الإمام، ويشمل الدور الرابع قاعة محاضرات، وقاعة اجتماعات ومعرضا تجاريا ويشمل الدور الخامس مئذنة وغرفة للمعدات الكهربائية، وهذا المتحف سيكون من المعالم السياحية فى الصين..

□□□

وعندما زرت مدينة شنغهاى لم أكن أعرف أن فيها ٥٠ ألف مسلم، وفيها ٧ مساجد يرجع تاريخ إنشائها إلى عصور مختلفة، ولذلك فهى تحمل الطراز المعمارى لكل عصر من العصور التى توالت على الصين، فمثلا مسجد «سونجيانج» تحيط به حديقة من الطراز الصينى القديم، ومسجد زياو تويوان هو مسجد حديث أنشئ عام ١٩٢٥ وبعد سياسة الانفتاح على العالم وسياسة إطلاق حرية الاعتقاد الدينى، أعيد بناء جامع هوزى وجامع بودونج بدعم مالى من الدولة،وفى شنغهاى عشرات المطاعم التى تقدم اللحوم المذبوحة طبقا للشريعة الإسلامية وتحرّم دخول لحم الخنزير أو استخدام شحومها فى الطهى على عادة الصينيين. ولأن شنغهاى مدينة مفتوحة ويتعايش المقيمون فيها من كل الجنسيات وكل الديانات وكل القوميات، فإن المسلمين يتمتعون فيها بالمساواة والحرية الدينية ويشاركون فى الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية. وشنغهاى هى أهم ساحة ثقافية حرة فى الصين، وتتميز جامعاتها بالانفتاح وحرية التفكير، كما يتميز أساتذة هذه الجامعات بالاندماج فى الأنشطة الأكاديمية فى جميع دول العالم تقريبا، وقد أنشئت فيها «رابطة شنغهاى الإسلامية» فى عام ١٩٦٢

وهى تنظم الاتصالات والتبادل الثقافى مع المؤسسات الإسلامية فى الدول العربية والإسلامية..

وتعليم الدين الإسلامى فى الصين يتم عن طريقين: الأول فى المساجد حيث يتولى إمام المسجد تعليم الأطفال مبادئ الدين الإسلامى والقرآن والعبادات، والثانى هو طريق المدارس الإسلامية التى ظهرت مؤخرا، والتعليم فى المساجد هو الأسلوب التقليدى القديم، ويتم باللغات العربية والفارسية والصينية ويسكن المسلمون عادة حول المساجد فى القرى والمدن، وهذا الأسلوب يتفق مع الأسلوب القديم لتعليم الدين فى البلاد العربية والتعليم التقليدى القديم فى الصين، وهو لذلك أنسب أسلوب يلائم الصينيين. لأن التعليم فى المساجد مفتوح لكل من يريد ولا يتقاضى الإمام أجرا على عمله فى تعليم الدين واللغة العربية لكى يقرءوا القرآن ويدرس لهم التوحيد وقراءات مختارة من كتب العقيدة والفقه ويعلمهم الوضوء والصلاة، وفى مستوى التعليم الجامعى يلتحق الطلبة بالمساجد أيضا ويدرس لهم الإمام منهجا فى العقيدة والأخلاق لمدة ٦ سنوات يشمل المنهج مرحلتين: المرحلة الأولى الأساسية يدرس فيها الطالب اللغتين العربية والفارسية والمنطق، والمرحلة الثانية التخصصة تشمل التفسير والحديث وعلم الكلام والشريعة والفلسفة الصوفية. وهذه المناهج مقررة فى ١٣ كتابا، وبعد إتمام الدراسة يحصل الطالب على شهادة من الإمام ليصبح الخريج إماما فى أى مسجد، وفى فترة العشرينات والثلاثينات ظهر نوع جديد من التعليم الإسلامى الحديث على أيدى بعض كبار المثقفين والقادة الاجتماعيين من المسلمين، فنشأت مدارس إسلامية فى بكين، وشنغهاى، وجينان، ويومان، ونجزيا، ومدن أخرى تجمع الدراسة فى هذه المدارس بين دراسة العلوم التى يدرسها الطلبة وفق مناهج التعليم الرسمية، بالإضافة إلى العلوم الإسلامية، وأرسلت بعثة من خريجى هذه المدارس لاستكمال الدراسة

فى المدارس والجامعات فى الدول الإسلامية وعندما عادوا كان لهم دور كبير فى تطوير الدراسات الإسلامية فى الصين، وظهرت «المدرسة العليا القومية الإسلامية» و«معهد الصين الإسلامى» الذى أنشئ سنة ١٩٥٥ الذى يدرس منهج العلوم الإسلامية ومنهج العلوم الأخرى المقررة فى المعاهد المماثلة فى هذا المعهد عدة تخصصات ودراسات، فهو يمنح شهادة «البكالوريا» وفيه قسم لتدريس طرق البحث فى العلوم الإسلامية وقسم لتعليم الطلبة الوافدين من خارج الصين وقسم لإعداد وتدريب الأئمة،وتشمل المناهج دراسة الجغرافيا والتاريخ والسياسة والعلوم الاجتماعية، ودراسة نصوص إسلامية. وبعد إتمام الدراسة فى هذا المعهد يصبح الخريجون مؤهلين للعمل أئمة فى المساجد، وتدريس العلوم الإسلامية، والآن فى الصين ٩ معاهد إسلامية من هذه النوعية الجديدة فى بكين ومدن أخرى.

❐❐❐

وخلاصة ما وصلت إليه من بحثى عن حقيقة أوضاع المسلمين فى الصين أن تاريخهم ملئ بمراحل من الاضطهاد ومراحل تمتعوا فيها بالحرية الدينية، وهم فى النهاية أقلية يسرى عليهم ما يسرى على الأقليات، وهم يتمتعون الآن بقدر معقول من الحرية الدينية، وتظهر فى إقليم «سنكيانج» دعوات ومحاولات للانفصال تقابل بالشدة من جانب الحكومة الصينية التى تقاوم بكل قوة أية دعوة للانفصال، وتتفجر من حين لآخر أحداث عنف نتيجة احتكاك الطوائف الأخرى بالمسلمين، ولكنهم فى النهاية جزء لا يتجزأ من الصين .

❐❐❐

ويبقى أن نسأل: هل قدمت الدول الإسلامية ما يكفى من معونة ودعم لمسلمى الصين؟.. إنهم يحتاجون إلى مساعدات كبيرة فى مجال التعليم

الدينى بالذات لدراسة العلوم الإسلامية واللغة العربية من مصادرها الأصلية، ولكى يتخلصوا من الأفكار والشوائب والأساطير التى تسربت إلى المفاهيم الإسلامية من عقائد وأفكار غريبة عليه، كما يحتاجون إلى مساعدات كبيرة لترجمة المراجع الإسلامية الأساسية إلى اللغة الصينية، وهذه عملية كبيرة تحتاج إلى جهود وأموال فوق طاقتهم، ويحتاجون أيضا إلى توجيه الدعوات لأكبر عدد منهم لزيارة الدول الإسلامية والتعرف على أحوال المسلمين والاقتراب منهم لكى يشعروا بأن لهم عمقاً إسلامياً يساندهم ويتعرفوا على الفكر الإسلامى الصحيح..

ومثل هذه الواجبات لم تنل من الحكومات والمؤسسات الإسلامية ما تستحق حتى الآن، وما تقدمه الآن من مساعدات مشكورة لا تتناسب مع حجم وطبيعة وظروف المسلمين فى الصين.